رثاء عاطف جانبيه

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا كان الرثاء، بحد ذاتِه، موقفاً صعباً يشقّ على الراثي، فما عساهُ يكون إذا كان المرثيُّ زميلاً أو صديقاً تربطك به عِشرةٌ لم تنفصم إلا بالموت، وتشده إليك صفاتٌ هيهاتَ أن تُنْسى؟

وإذا كان وَداع المسافر من الدنيا إلى الدنيا أمراً صَعْبَ الاحتمال، تواكِبه الدموع، فما تُراه يكون وداعُنا الأخير، وما عسى كلماتُنا البائسة أن تقول في رحلة الفَزَع الأكبر؟

هذا ما أحْسَسْتُهُ لمّا هَمَمْتُ بكلمةٍ أشارِكُ بها في وَداعِهْ، وهذا ما تيسَّر لي من القول الرازح بموضوعه، حروفاً قاصِرات، أُهديها إلى روحِه، لَعَلّي بها أنهض بما يجب.

أيها السادة الأفاضل،

إذا كان مَنْ سَبَقنا، مِنَ المفكرين والأُدباء والشعراء، قد طَرَقوا، بالرثاء، بابَ الموت، ورسموا الصور الجميلة لوجهه البشع، فما بالُنا، إذا تَصَدَّينا اليومَ للرثاء، نُشيحُ بوجهنا عَنْهم، وتَغْفَلُ أقلامُنا عن كلامِهِم، وكلامُهم كلامٌ مُجَوَّد، يَصِحُّ لِكُلِّ زمانٍ ومكان؟

هذا عَلَمٌ من أعلامِهِمْ، وكبيرٌ من كِبارهم، وشاعِرٌ منهم عَرَفَ الموتَ حَقَّ معرفَتِه، وكان له، من الرثاء، مَعانٍ لا تَبْلَى. وها نحنُ نَفْزَعُ في مقامنا إليه، ونَنْتَقي، من شعرِه ونستعيرْ، ما نستعين به على وَداعِ مَنْ فَقَدْنا.

إنه الشاعِرُ الضريرُ أبو العلاء المعري، وقصيدةٌ مشهورةٌ من شعره المُبْصِر، نَفَذَ بها إلى حقائق الوجود، واكتَنَهَ بها، من أبْعادِ الفَنَاء وصُوَره، آفاقاً اتَّسَعَتْ بها الآفاق، واغتنتِ الرؤية، حتّى غدا رثاءُ الإنسان، في هذه القصيدة، رثاءً للكون والكواكب والنجوم، لأن الإنسان، في فلسفة المعري، جِرْمٌ صغيرٌ انطوى الكون فيه، فكان رثاء الكون تعميقاً لرثاء الإنسان:

غَيْرُ مُجْدٍ في مِلَّتي واعتقادي نَوْحُ باكٍ ولا تَرَنُّمُ شادِ

وشبيهٌ صوتُ النعيّ إذا قيـ سَ بصوتِ البشيرِ في كل نادِ

أَبَكَتْ تلكُمُ الحمامةُ أمْ غَنَّتْ على فَرْعِ غُصْنها الميَّادِ

صاحَ هذي قبورُنا تملأ الرُّحْبَ فأينَ القُبورُ مِنْ عَهْدِ عادِ؟

رُبَّ لَحْدٍ قد صارَ لَحْداً مِراراً ضاحكٍ من تَزَاحُمِ الأضدادِ

ودفينٍ على بقايا دَفين في طويلِ الأزمانِ والآبادِ

حتى إذا استدار الشاعر من رِثاء الإنسان بكُلِّيَّته، إلى رثاء مُواطنٍ من مواطنيه، كان لنا، من هذا الرثاء، كلامٌ نستطيع استعارته لفقيدنا الغالي، المرحوم عاطف جانبيه. إنها أبياتٌ لروحك، نوجهها إليك يا أبا عامر في ذكرى الأربعين، نقول بها مع الشاعر:

كيفَ أَصْبَحْتَ في محلِّكَ بعدي يا جديراً مني بِحُسْنِ افتقادِ

قَدْ أَقَرَّ الطبيب عَنْكَ بِعَجْزٍ وتَقَضَّى تردُّد العُوَّادِ

كنتَ خِلَّ النَّدى فلما أراد البَيْـ نَ وافَقْتَ رأيَهُ في المُرادِ

ورأيتَ الوَفاءَ للصاحِبِ الأوَّ لِ مِنْ شيمةِ الكريمِ الجوادِ

وَخَلَعْتَ الشباب غضّاً فيا ليتَـ كَ أَبْلَيْتَهُ مع الأنْدَادِ

وكما ينتقل الشاعر، بعد هذه الأبيات، من رثاءِ مَنْ رَثاه، إلى رثاء الكون كُلِّه، ليُخفِّفَ وَقْعَ الموت على الإنسان، ويُخفِّف وقْعَ المصاب على ذويه، ويقول: أيها الإنسان المغْتَرّ، ما أنت إلا ذرَّةٌ في صحراء الوجود، وفناءُ الذرة يتلاشى في فناء المجرة،

كما ينتقل الشاعر إذَنْ إلى رثاء الكون، فإننا، نحنُ أيضاً، نشاركه في هذا الانتقال، ونشاطِرُه هذا الرثاء، ونحاول وإياه، برثاء الكون المقبل، في رأيه، على الزوال، أن نُعزِّي أنفُسَنا، ونعزي أهلنا الأفاضل، آل جانبيه، فنقول لهم بمحبةٍ وأسى: الموتُ أيها السادة حقٌّ لا يُنكر، ومصيرٌ حتى الكواكبُ لا تنجو منه:

زُحَلُ أَشْرَفُ الكواكبِ داراً		من لِقاء الرَّدى على ميعادِ
ولِنَارِ المرّيخ مِنْ حَدَثانِ		الدَّهر مُطفٍ وإنْ عَلَتْ باتقادِ
والثريّا رهينةٌ بافتراقِ		الشَّمل حتّى تُعَدَّ في الأفرادِ
كلُّ بيتٍ للهَدْم ما تَبْتَني الور		قاءُ والسَّيِّدُ الرفيعُ العِمادِ
والفتَى ظاعِنٌ ويَكْفيهِ ظِلُّ		السِّدْرِ ضَرْبَ الأطنابِ والأوتادِ
بانَ أَمْرُ الإلهِ واختلَفَ النا		سُ فَداعٍ إلى ضلالٍ وهادِ
والذي حارَتِ البرِيَّةُ فيهِ		حيوانٌ مُسْتَحدَثٌ مِنْ جَمَادِ
واللبيبُ اللبيبُ مَنْ لَيْسَ يَغتَرُّ		بكونٍ مصيرُهُ للفسادِ

أيها السادة،

ما لم يَقُلْهُ أبو العلاء، عن فقيدنا الغالي الأستاذ عاطف جانبيه، نحاوِلُ نحن أن نُشيرَ إلى بعضه.

كان أبو عامر، رحمَهُ الله، إنساناً عصامياً، بنى نفسَهُ بنفسِه، وظلَّ يرتقي درجات السُّلَّم حتى بَلَغَ مكاناً عَلِيّاً، فكانت عصاميَّتُه ونجاحه مثلاً يُحتذى، ونموذجاً للناشئة السائرين في دروب المستقبل.

كان منصرفاً إلى عمله فما أقْعَدَه المرض، ولا ثَناه الألَمْ. حتى النَّفَس الأخير ظَلَّ أبو عامر في الخدمة. إنه لم يَمُتْ راجلاً بل مات فارساً. لم يمت على الفراش بين أهله وذويه. لقد مات فوق الجواد، بعيداً عن أحبّ الناس إليه، وأحناهُم عليه: الفتى عامر، والصبيَّة زينب، والزوجةِ المصون السيدة هيفاء. لقد سُلِخَتْ يداه عن أوراق الدولة، أيْ أوراقِ المواطنين، بَعْدَ سبعةٍ وثلاثين عاماً من الالتصاق بها، والحرصِ عليها.

أيها السادة،

إنني،

بعد توجهي بالعزاء القلبي إلى اهل الهرمل الكرام،

وتوجهي إلى آل جانبيه الأفاضل،

وبعد توجهي إلى رفيقة الدرب الوفية التي أصابها الخَطْبُ أكثر مما أصاب سواها،

أراني أتوجَّهُ إلى العزيزين عامر وزينب لأقول لهما:

إن خَيْرَ عزاءٍ لكما عن الوالد الفقيد، وخيرَ ما تطمئنّ إليه روحه، ويبْتَرِدُ به ثَراه، أن تنطلقا من يُتمٍ مُبَكّر تَرَكَكُما الوالدُ فيه، إلى حياةٍ عامرة بالأمل، وأن يكون لكُما، من والدتِكما أولاً، ومن ذكرى الوالد وما حقَّقَهُ في حياته، نبراسٌ تستضيئان بنوره، وهدفٌ أقلُّ ما تصْبُوان إليه: بُلوغُه وتخطّيه، لأن تحقيق الهدف لا يكون إلا ببلوغِهِ وتخطّيه. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.